الموضوع الخامس عشر

بئس ما فعلت

عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «بئسما لأحدهم يقول: نسيت آية كيت وكيت بل هو نُسِّيَ، استذكروا القرآن فلهو أشد تفصيًا من صدور الرجال من النعم بعُقلها » .

[أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه (١/ ٥٤٤) رقم (٧٩٠)]

«بئسما لأحدهم» أى: نوع من الذنب، أى: بئس ما فعلت، أى: ما فعلت كان سيئاً كان كريهاً كقوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء: ٣٨] ، أى: جميع ما تقدَّم ذِكْرُه من أوامر ونواهٍ ، يكره الله سيِّئَه، ولا يرضاه لعباده.

فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ٣٩]، ذلك الذى بيَّناه ووضَّحناه من هذه الأحكام الجليلة، من الأمر بمحاسن الأعمال، والنهى عن أراذل الأخلاق مما أوحيناه إليك أيها النبى، ولا تجعل - أيها الإنسان - مع الله تعالى شريكًا له فى عبادته، فتُقْذف فى نار جهنم تلومك نفسك والناس ، وتكون مطرودًا مُبعدًا من كل خير.

«بئسما لأحدهم يقول: نسيت آية كيت وكيت» أى: كذا وكذا، وكلمة (كيت الياء فيها مسكنة) نسيت آية كيت وكيت بل هو نُسى (بضم النون)

«استذكروا القرآن فلهو أشد تفصيًا» (أى: انفصالاً وتفلتًا) «من صدور الرجال من النعم بعقلها».

رواه الإمام البخارى هكذا بنفس النص أى: هذا النص الذى معنا هو الذى ورد فى صحيح الإمام البخارى رحمة الله تعالى عليه، ولا حرج أن تقولوا: ﷺ، فبعض الناس يعترضون أن نقول: البخارى ﷺ، لماذا لم يرض الله عنه ؟ إن الله تعالى قال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

والذين سبقوا الناس أولاً إلى الإيمان بالله ورسوله من المهاجرين الذين هجروا قومهم وعشيرتهم، وانتقلوا إلى دار الإسلام، والأنصار الذين نصروا رسول الله ﷺ على أعدائه الكفار، والذين اتبعوهم بإحسان فى الاعتقاد والأقوال والأعمال طلبًا لمرضاة الله ﷻ، أولئك الذين رضى الله عنهم لطاعتهم لله ورسوله، ورضوا عنه لما أجزل لهم من الثواب على طاعتهم وإيمانهم، وأعدَّ لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا، ذلك هو الفلاح العظيم. وفى هذه الآية تزكية للصحابة -رضى الله عنهم- وتعديل لهم، وثناء عليهم؛ ولهذا فإن توقيرهم من أصول الإيمان.

رجل كالإمام البخارى يعيش فى صحبة النبى ﷺ طوال عمره فى اليقظة والمنام، شغله، حياته كلام وفعل رسول الله ﷺ لماذا لا أقول: ﷺ؟ .

إن الله تعالى هو الذى قال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ اتبعوهم أى: التابعون، وتابعو التابعين، وتابعو تابعى التابعين.

رغم كون البخارى ليس عربياً، فإنه تعلم فى بلادنا العربية، وخرج من بلادنا الإسلامية من بخارى فى أقاليم كردستان، وما بعدها فى روسيا أو ما

يسمى الاتحاد السوفيتى القديم، ولكنه كان له عطاء نورانى خاص أى: عندما خالط فى أرض العرب وعاش فى أرض العرب، وشاهد علماء العربية، فإنه أعطى الإسلام عطاءً جميلاً.

«لا يقول: نسيت آية كيت وكيت بل هو نُسِّىَ» أى تغافل فَنُسِّىَ كما فى قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنْسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ [الكهف: ٦٣]، أى: قال له خادمه: أتذكر حين لجأنا إلى الصخرة التى استرحنا عندها؟ فإنى نسيت أن أخبرك ما كان من أمر الحوت، وما أنسانى أن أذكر ذلك لك إلا الشيطان، فإن الحوت الميت دبَّتْ فيه الحياة، وقفز فى البحر، واتخذ له فيه طريقًا، وكان أمره مما يُعْجَبُ منه.

«استذكروا القرآن فلهو أشد تفَصيًا من صدور الرجال من النعم» النعم، أى: الأنعام والمواشى والإبل ... يطمئن عليها صاحبها لو تركها فى الحظيرة، أما لو تركها مدة طويلة وجاعت فماذا تفعل ؟ تجرى فى شِعَاب الأرض، وفى فجاجها تفلتا، ولا يعيب عليها أحد تَفَلتها أبدًا؛ لأنه لم يحسن ربطها ولا وثاقها؛ لأجل هذا لأن القرآن العظيم عظيم، القرآن القوى قوى، القرآن الكريم كريم؛ فلأجل هذا فهو أشد تفصياً، أى: تفلتًا من صدور الرجال من النعم إذا لم تربط، وإذا لم تعقل فى حظيرتها، وفى معلفها، فإنها سريعًا ما يجرى عليها التفلت.

كالمعلم الذى يترك الأولاد والتلاميذ فى الفصل، وفيه أربعون أو خمسون تلميذًا، ويذهب لكى يتكلم فى المحمول مثلاً أو يتكلم مع زميل له، فإنه عندما يعود للتلاميذ لا يعيب عليهم أن بعضهم ضرب الآخر، ولا يعيب عليهم أن بعضهم مزق أوراق المصحف، أنت تركتهم فى وقت ما كان ينبغى لك أن تتركهم فيه، والمعلم عندما يتأخر فى الذهاب إلى الأولاد فى الحصة ويُضَيّع وقتًا،

ولا يذهب إليهم إلا بعد عشر دقائق أو خمس دقائق، فيحدث فيها مخالفات وعرائك، وشتائم، وضرب، وربما تحدث إصابات خاصة فى السنوات الأولى، أى: المراحل الدنيا من التعليم، إن الذى يتحمل هذا عند الله تعالى ﷻ هو الذى أخل بالأمانة وما حافظ عليها فأدى هذا إلى تفلت الأولاد، وتفلت الأبناء والتلاميذ، هكذا فى البيوت أيضًا وهكذا فى جميع الأحوال.

صدقت يا رسول الله بأبى أنت وأمى صدقت يا رسول الله ﷺ «آية كَيت وكَيت» (الكاف مفتوحة) أى: كذا وكذا بل هو نُسى(بضم النون) أى: نسى الأمر كرهاً عنه، عندما تغافل عن القرآن فإن القرآن ذهب عنه، استذكروا القرآن لهو أشد تفصياً أى: انفصالاً وتفلتًا من صدور الرجال من النعم بعقـُلها .

هذا الحديث ذكرنا مثله من قبل فى شأن تعهد القرآن لكن الحديث الذى معنا بنص الإمام البخارى، وقد أردت أن آتى لكم به لكى أُذكّرَكُمْ بأهمية قراءة القرآن، ومتابعة حفظه وكنا قد توقفنا عند قاعدة مهمة، وهى تفلت القرآن العظيم عند المعصية.

هناك مسألة فى غاية الأهمية وهى أن الإنسان يستشعر أنه إذا كان فى غفلة، إذا كان بعيداً عن الله ﷻ، و إذا كان بعيداً عن معانى القرآن الكريم، وإذا كان بعيدًا عن العمل بالقرآن الكريم، فإنه سريعًا ما يتفلت القرآن الكريم من قلبه.

يا من ألبسنا عافية فعصينا، ولم يسلبنا عند ذلك عافيته.

يا من أكرمنا وأسبغ علينا نعمه فعصينا، فلم يزل عنا نعمته.

يا من أقالنا عظيم العثرات، وأمرنا بالدعاء، وضمن لنا إجابته.

يا من نعصيه فيستر علينا، ويغضب لنا إن عُيِّرنا بمعصيته.

يا من نهى خلقه عن انتهاك محارمنا، ونحن مقيمون على انتهاك محارمه.

يا من أفنينا ما أعطانا فى معصيته، فلم يحبس عنا عطيته.

يا من كتم سيئاتنا وأظهر محاسننا حتى كأننا نعمل بطاعته.

يا من أرضينا عباده بسخطه فلم يكلنا إليهم ورزقنا من سعته.

اللهم أعطنا هدى من كل ضلالة، وغنى من كل فقر، وقوة من كل ضعف، وعزاً من كل ذل، وأمنا من كل خوف، وعافية من كل بلاء.

اللهم ارزقنا عملاً يفتح لنا باب كل يقين، ويقيناً يسد عنا باب كل شبهةً، ودعاءً تبسط به الإجابة، وخوفاً تيسر لنا به كل رحمة، وعصمة تحول بيننا وبين الذنوب، برحمتك يا أرحم الراحمين.

اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد صاحب الشريعة والبرهان، والوسيلة والأمان للقاصدين.

اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد صاحب المقام المحمود والحوض المورود، واجعلنا به آمنين.

اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد الآية الكبرى، والنعمة العظمى، والسراج الوهَّاج
وعلى آله وصحبه الغر الميامين